عذراء الليل

قصص قصيرة وومضات

د. نهلة جمال محمد

٢٠١٧

الناشر

النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

www.darelnokhba.com

رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذى

سماح الجمال

المدير الفني

أحمد جابر

تصميم الغلاف

أحمد صادق

التصميم الداخلى

وليد محمد

دار النخبة
للطباعة والنشر والتوزيع

٣٣ شارع السنترال - المجاورة الأولى
- الحي الأول - مدينة الشيخ زايد -
الجيزة - مصر

تليفون: ٣٨٥١١٩٦٩ - ٠٠٢٠٢
٠١٢٨٨٦٨٨٧٥ - ٠٠٢
E-mail: alnokhoba@gmail.com

الإهداء

إلى كل من أتقن معادلة الحياة،

فأسعد وسعد...

بداية طريق

جمعت "منى" زهر البنفسج في آنية زجاجية أمامها، وارتدت عقدها الصخري اللون؛ ليكبح عنفوان الثوب المزركش بزهره الحزين.

خطت نحو باب البيت القابع في حي عميق الهموم متواضع الأحلام، حيث يكون النسيان عنوان الحياة، على طرف صخب المدينة المزركشة بألوان الحداثة المتطفلة على أجساد المنهمكين في سباق التنافس المادي.

أبواق لاهثة تشق الآذان، بينما تقف ساكنة على ناصية الطريق، لا تقوي قروشها الصغيرة على الفوز بلذة تناول مشروب صباحي ساخن بالمحل المواجه، وفتات أمنياتها قابعة في قاع حقيبتها، منذ غادر وتركها عروس العام الأول، تاركًا ميراثًا من الهموم والشقاء والعزوف عن الفرح، في مجتمع حجب عنها فرص البقاء.

همهمت "الستر"، أنشودة نساء الحي، وأكذوبة رجاله، اندفعت ذكرياتها أمامها تصرخ فيها أفيقي، منذ أعوام عشر مضت، منعت من السير قهرا لتلك البوابة الحديدة حيث الكتب والعلم، إلي أن قدموها دمية لتاجر بلا ضمير اشتري براءة طفولتها بزركشة الأثواب النسائية وجدران باردة.

والآن تركوها في الطريق لا حديث لها إلا مع زهر البنفسج، في رحلة يومية إجبارية بحثا عن عمل دون رياء، دون تسلط، يخلو من شهوات التجار، هي معركة الاحتياج مع الحفاظ علي الكرامة الإنسانية، وعبثا تستمر الرحلة!!

تسمع نداءات العجزة من مرضي الغرائز وتلميحاتهم، وتعبر الطريق بإصرار، تلمع وسط الذكريات تلك الملامح البريئة، التي أخفتها شهور العام المنقضي في حزن ملامحها، تقرر الانتصار لطفولتها، تفتح البوابة الحديدية.

هناك تستقبلها بسمة بود، تحتضن احلامها وتهمس: أخيرا يا مني، تهديها دفتر بنفسجي وتسطر في أوله "هنا بداية الطريق".

***

.

تسلل

أغلقت ستائرها المجدولة بخيوط بنفسجية باهتة لتستلقي إلى فراشها المقابل في زاوية الغرفة للشباك حيث يتسلل الضوء ولا يسكن المكان.

أغمضت جفنيها ورفعت إشارة البدء ليومها الجديد حيث تخطط، وتؤلف سيناريو كل الأحداث وتبدل الأدوار وفقا لما تحب.

هو يومها تحياه بلا أوجاع، بلا أوامر، بلا ضوابط سوى أخلاقها هي، ولا تسمح لأبطاله إلا بما يسُرها، ستجعل من كلماته لها همسات وثناء، ومن غرفتها كوخ صغير على شاطئ النهر، ترتدي فيه ألوان البهجة وتتحرر خصلاتها السمراء من قيد النظام، ستلمس أناملها بهدوء أواني الطهي غير مترددة أو متوترة خشية لوم اصطياد الأخطاء، تجري بين جنبات المكان بدلال، ويراقبها بنظرات حانية وهو يقرأ جريدته.

تدندن بصوت طفولي أغنيتها الحالمة.. تقع.. تقف.. تخرج بحثا عنه.. ليسمعها أبيات العشق والاشتياق.

ما يدهشها كل مرة أن صمته يسرد لها قصص وعبر كل الناس، وكأنه يحمل ملامحها بصفحته المضيئة فتتأرجح بين تجاعيد المشكلات وصفاء الأمل.

وتعد منضدة خشبية صغيرة مزينة بقنينة عطر فارغ تحمل شذى الياسمين، وتنثر بتلات الزهر على جانبيها.

تضع الطعام وتنتظر احتضانه للفرح بعيونها حين يجلس أمامها ويرتشف ذلك العصير المفضل له..تنتظر كلماته.. تتلهف للمس شفاه لكفها مشجعا لها.. تنتظر بلا ملل، وتبحث عن زائرها..

هي لم تخبر الليل بسرها، لكن عيون النهار فضحت الأمر، حين تسللت إليها عبر ستائر الغرفة لتنهي هذا العتاب القاسي عن غياب هذا الزائر الذي يفك اشتباك الأوجاع بأماني البقاء، ويلقي ظله على فراشها، فتسكنه زهور الأحلام، يؤنس سهرها بهمسه لأغنيات فيروز الرقيقة، ويزرع الذكريات في شباك غرفتها لتطل بين الحين والآخر على واقع بلا حبيب.

لكنها دوما تفيق حين تتمرد خصلاتها الغجرية على زيارة جدائل أشعة النهار لستائر غرفتها، فيتجدد العتاب حتى موعد تسلل الليل من جديد.

***

.

حياة بلا حكايات

هو دومًا تحكي عيونه قصص عشاق الحياة منذ عُرفت الحكايات، عندما يحين موعد التلاقي وتتوقف عقارب الساعة هربا إلى حنين اللقاء، يستدفئ وجدانه بمقلتيها، وكأن دقائق اللقاء المعدودة نسيم يداعب الروح، ويطرب الآذان همس الترحاب الرقيق.

هي كعادتها الصباحية تفيق الساعات على صوت إغلاق باب سيارتها، وهي تبدأ الغياب اليومي، ليخطو بتردد مغلقا شرفته المطلة على حديقتها المورقة بالأمل الحزين، ليبدأ في سباته الحياتي حيث لا حكايات سوي الانتظار.

يرتدي بدلته الرمادية الأنيقة، ويرتشف قهوته بتملل الحائر، مخاطبا صوت العقارب المتخاذلة: كم تعبثين بي فتتمللين في نعاسك طوال النهار، فتح باب للنسيان بانهماكه في قراءة وجوه الناس، وكتابة سطور تقارير العمل، أنامل تعبث بأدائية محترفة، لكنها بلا قلب.

قد غاب عنه الإحساس بالجمال بغياب طيف بسمتها؛ إلي هذا الحد تملكته تلك السمراء المشوقة ذات البهجة المجروحة؟

فمنذ أن أشرقت بمواجهة شرفته في صيف ماض تقرأ كتابها الصغير، وترتشف أحلامها في سكون، أدرك هو موهبته الجديدة في قراءة حزنها ووحدتها، رغم أسوار السعادة الخادعة التي تحيط بها من جمال ورقة وأناقة، جعلت من يراها يظنها أميرة مدللة، بينما يراها هو طفلة يتيمة فقدت للتو الدفء والحنان.

لا يدري لماذا اخترق هذا الشعور قلبه وتعالت أمواج الرغبة في احتواء أحزانها.

بعد توسط شمس النهار بالسماء خرج حسين من دوامة الأوراق، يلتمس لحظات من الهدوء النفسي، وتوجه إلى كهف أمانيه ينتظر عودتها، بل ينتظر عودة الحياة ليومه.

طال الوقت أم تأمر عليه، واستسلم لخمول مقيت.. نعم مازال الشارع يحفل بالمارة، ومازال الضوء يتخلل فتحات النوافذ، يحمل أريج زهر الياسمين من شرفتها، يعلن الاشتياق للارتواء.

بقي حسين طويلا طويلا يتنسم عبير الياسمين الذابل بشرفتها، يكرر كل صباح التحية من خلف الشرفة، ويأتي ذكري همسها: "صباح النشاط أستاذ حسين" كما كان يروق لها تحيته، فيعقب صباح الرقة والسعادة سيدتي.

لم يعلم كيف اختفت طلتها سبعة أيام، ولماذا لم يقتل ذلك التردد القابع بعقله منذ أشهر؛ ليطلب منها لقاء يبدأ به حياة معها، يعبر فيه عن مفاهيم التماسك الأسري، وأساليب تربية الأطفال الحديثة، ليطمئنها أنه مشروع زوج وأب ناجح.

وكأنه الأربعيني الذي فقد سنوات رشده، وعاد مراهق يتصنع الصدف، ويسرق لحظات مراقبتها وهي تحتضن كتابها أو تعبث بنباتات شرفتها كطفلة تحدث أقرانها، لماذا لم يطرد وسواسه الشرقي عن مخاطر اقتحام أسوار سيدة ترك أحدهم بنفسها ذكرى حياة، قصيرة أو طويلة لم تعد مسألة فارقة، المهم من هو، ولما، ومن السبب، من المحب ومن الخائن للعهد... تساؤلات لم يفلح حبه في أجابتها، وعجزت نفسه على مواجهتها.

الآن، صوت ارتطام بشرفتها يوقظ نشوة الحياة فيندفع لاهثا إليه.. عم إبراهيم الحارس بالشرفة، يحاول مع سايس المكان تثبيت لوح خشبي يلتف بإعلان ابيض ضخم مزركش بكلمتين، يقف حسين أمامه صامتا... وحروف كلمات الإعلان (شقة للإيجار) تغتال أحلامه وتعلن عن ضياع الحكايات،.

***

خريف العلاقات

قمة الغباء أن تستجيب النفس لتيار الأنانية المجحف لكل جمال، فتصم الآذان، وتعمي كل الحواس عن العطاء، نعم فالبخل غباء، يصيب جسم المشاعر بخمول وهذيان ويفقدها نضارة الحياة، وفي مجتمعنا العربي يتعللون بطبيعته القاسية ، وتاريخه الذكوري؛ ليسطروا روايات لتبرير أنانية ذكر بلا رجولة.

تلك الحكايات اليومية لاستنزاف الآخر، وكأن مزاد الأمس واليوم على القيم تحول إلى عرض مجاني لمعاني التخلي والحرمان.

صمتت علياء طويلا وهي تتنفس بشكل متتابع سريع، تحاول جاهدة أن تفرغ عنها هذه الأثقال لتهدأ، لكن صوت السيارة الذي يأتي من أسفل المبني زاد من تلاحق أنفاسها واضطرابها.

أغمضت عيناها لبرهة وجذبت أطراف الملابس تطويها وترتبها، وأصوات الأطفال حولها تحكي، وتتشاجر، وهي ترد حينا وتومئ أحيانا، سمعت وسط هذا الزحام صرير الباب يفتح، أغمضت برهة، انتظرت إلقاء

التحية، لترد وتذهب لإعداد الغداء، ويدخل هو ليرتاح قليلا، ويحكي عما يشاء وقتما يشاء.

علي مائدة الغداء جلس الجميع ما عدا هو، بدأوا وأنهوا ولم يصل، يتملل ويحاكي بهاتفه أو يلعب على حاسوبه، لم يعد يعنيها.

أنهت تنظيف أواني الطعام، وبدأت جلسة المتابعة للأولاد، وتستعد لتكرار الروتين بتحضير العشاء، والرد على كل الطلبات.

ومع دقات التاسعة احتضنت أحلامها، وجلست وسط أطفالها تشاهد حلقة مسلسل درامي يومي من الخيال المحال، نعم حين يمسك بطل المسلسل بيد زوجته، ويهمس أنا معك لا تخافي أبدا، سأظل حمايتك وسندك، فتدمع عينون البطلة وتحتضنه، وما العجب!

علياء لم تحرم يوما من الدموع، دموع الحزن لا الخوف، فهي لم تجد الحماية منه؛ بل الاتهام بالتقصير على كل شيء، انتهي استرخاءها حين سمعت صوته مخاطبا الأطفال غاضبا: ألن تناموا! وينظر لها آمرا باستعداد الجواري لسيدها، رحلة الإنهاك والاغتيال باسم الحقوق.

في الصباح فتحت كل الأبواب، وارتدت في عجالة ملابس فضفاضة تستر أحزانها؛ لتصطحب أطفالها للحضانة وتفر بعيدا، تمشي بلا عتاب،

بلا طلبات، بلا واجبات، تمشي في الشوارع حتى تنهك لتعود قبل موعد عودة السجان.

تعبث بشعرها، وتدندن بأغنية قديمة، وتشرب مشروب ساخن تلك كل أمانيها الصباحية، ولكن اختراق صوت الهاتف لهذا الصمت اللذيذ أقلقها:

- ألو

- ازيكم

- عندنا ايه على الغدا، أنا جعان لكل حاجة.. فاهمه؟!

- حاضر بس انا كنت عايزة.....

- قاطعها: بعدين، سلام.

لم يسمع الهاتف سلامها، لكنه ذاق بكاءها، لملمت شعرها برابطة سوداء وبدأت تعد أصناف الغداء.

***

.

رحيل

في مقعده الوثير بجوار نافذة تتزاحم من خلالها المباني والطرقات وتتدافع نحو إجابات مبتورة لأسئلة ملحة تتلاعب بتركيزه بين الحين والأخر، تغتال فرحته، وهي في أوجاعها، وترسم بنظراته علامات تعجب.

جاءته نغمات الهاتف المزدحم بإشارات وأسماء لأشخاص جمعته بهم المصلحة لا الحياة.

تملل في الرد مكتفيا بإصدار إيماءات بالقبول أو الرفض، فتح زجاج نافذته، بعثرت أوراق ذات أطراف بالية مصفرة على مقاعده الثرية بأحلام الناس، لمح فيها قصص قديمة لمشاعر صبي عشق الفرحة البريئة بعيون الأطفال، وجدائل الصبايا المشوقة، ومزينة بشرائط ستان بيضاء تلمع مع أضواء الشروق وهن يعبرن الواقع الفقير لمدرسة القرية أملا في غد متميز.

وكبر الصبي، وما إن تعدي الخامسة والعشرين حتى هجر تلك القصص، وأغلق عليها أبواب سرداب نفسه، وفتح كفوفه لسلب الأحلام وبيع الأوهام، كانت البنوك هدفه منذ عجز عن الاحتفاظ بأسطورة فؤاده حبيسة عيونه، لن ينسي قنابل الاتهام بانتهازيته وسوء تصرفه من عمدة القرية.. والدها.. مما أعاد لذهنه مشهد علي في فيلم رد قلبي، إلا انه أراد صياغة جديدة للأحداث.

بدأت أحداث تحوله في القاهرة بتجارة كل شيء حتى الأحلام، وانتهت بأرصدة وعقارات وشعيرات بيضاء زحفت لمقدمة رأسه بلا خجل؛ لتفصح

عن سنوات هجرته، حيث غابت عن وجهه شمس الحياة وراء نظارات قاتمة حرص على حيازتها ليل نهار.

انحني الطريق في مسار معوج متكسر تفوح منه نسائم خير الحقول الممتزجة بعبق الماضي، وضاقت المسافة بين جنباته لتتدافع موجات شهيقه وزفيره، وكأنه محاصر في نفق مظلم ضيق، تعالت أصوات الأشجار الحاضنة لأوراقها لماذا أتيت؟

سؤال ملأت أصداءه الطريق، وازدادت حدته تباعا، وضع كفيه على أذنيه محاولا المقاومة، أشار للسائق: أبطئ محرك السيارة الفارهة؛ للحذر من غيوم الشتاء.

أتاح له هدوء السرعة النظر للسماء الدامعة، ملامح بشرية تبدو له تتكون أوجه... تتابع الوجوه... أمي.. أبي، حبيبتي هل هذه أنت؟

لكن لا إجابات...، كلها وجوه قاطبة غاضبة، اشتدت الغيوم في هجومها على الضياء، وازداد حجم الوجوه.. تكاد تبتلع السيارة.. حاول أن تسرع.. اخرج من هذا الطريق.. حاول أن يصرخ بكلماته للسائق لكن لم تستجيب أحباله الصوتية وكأن الوجوه التهمت كل زيف.. قاوم إحساسه بالاختناق... دقائق ويتفرع الطريق إلي مسارين كحياته الماضية والآنية... فهل له الاختيار مجددا مع عودة أشعة الشمس للظهور؟

عادت تلك النغمات الغامضة لمسامعه.. ألو.. متى وبكم؟ اتفقنا.

انفتح الطريق المتفرع.. نادى على السائق.. عد للقاهرة حالا.

***

زحام

في زحام الطريق وجدته، كان يمشي بخطى واسعة تنتفض لها ذراعيه الرفيعتين وتنهك بها ضربات قلبه الحزين، كان يعبر الشارع وسط المركبات غير عابئ بصراخ السائقين حوله، وإنذاراتهم المزعجة، وأخيرا عبر وهدأ المكان...

هكذا هو يهوى الشذوذ والبطولة الزائفة، جلس على الكورنيش وعيناه حائرتان، ما بين صفحة المياه الباكية والطريق الطويل، فهل ينتظرني أم أنه عاد ليتذكر همساتنا حين كنا نجفف دموع نهرنا بمغازلة الحياة.

وقفت على الجانب الآخر أرمقه، ومع كل دقيقة تزداد فيها حيرته وتدمع عيناه تغمرني نشوة عظيمة فقد استبدلنا الأدوار أخيرا، ها هو ينتظر بعد أن انتظرته أعوام، يتذوق مرارة الهوى، ويعرف معني الصبر في العشق.

كان انتظاره سيف يغتال قلبي الجريح، ويهدم عشش الجفاء، ويبدد ظلمة الهجر، أخذت أضئ... ابتسم... وحين قررت السير إليه وقف، أخذ يخطو كالهاذي بين عربة الترمس وبائع السميط، يتلفت حوله وتبحث عيناه عن مجهول ببريق يكشف الطريق وينفذ للصدور.

عبر الطريق مجددا دون تردد واخذ يعبث بهاتفه الخلوي... يضرب أرقام... يعيدها مرات ومرات... يعتصر ساعته رافضا توقيتها.

اتكأ على سور قصير وخبأ وجهه بين كفيه... تسارعت دقات قلبي... لكنه أفاق على نسمات عطر أنثوي يحمله نسيم النهر المتملل وقت الظهيرة... يسرع الخطي ويستقبلها بين يديه... يزرع البسمة على وجنيتيها بهمسة... أما أنا.... تلاشيت في الزحام.

***

.

ضيف

في الشتاء، تتزاحم الأجساد طلبا للدفء، وتلتئم شروخ النفس وسط التفاف الجميع حول حوار ساخن ومشاعر متأججة، الكل يطلب الأمان، الكل يجلس بعيدا عن الجدار، ما عدا هي.

كانت تشرد كثيرا.. تتكلم قليلا.. تلملم تلك الشعيرات البيضاء وتصلح من طرحتها ذات التطريز اليدوي الناصع الذي أغلق حدودها أمام تيارات الجو، وكأنها تنتظر ضيف غائب، وكعادتها قبل أن تنصرف لتنام تحتضننا بنظرة حانية مودعة.

عشقت همهمات صوتها، وهي تتمتم بعبارات الشكر لله والدعاء حتى يسلبني النوم من رفقة جوارها، ورغم أصوات الرياح ورذاذ المطر المتسلل من ثقوب النافذة الخشبية، كانت حرارة أنفاسها تدفئ المكان.

في ذالك الصباح، استيقظت باكرا لأبدأ رحلة عودتي للدراسة بجامعة العاصمة الصاخبة بالوجوه والأحلام، وجدتها ترتب أغراض سفري في حقيبتها ذات الأقفال الصغيرة الذهبية، أكوام من الأثواب المتهالكة بضغوط الحياة.. تنتقي منها المزركش والملون وتجعله في قاع الحقيبة الجلدية... وبشكل ملفت تطوي الأسود منها في قمتها.

في إجازتي التالية أحسست بشروخ البرد ترسم أحرف اسمها بجدران البيت الكبير، فأيقنت أنه حضر كعادته بلا استئذان.

***

عد

جلست على ذلك المكتب الذي شهد لحظات تأمله وهمساته المعلقة على ما يقرأ وما يستمتع من نغمات، فإذا ببريق قلمه الذهبي يضيء في ظلمة ليلها الطويل يحفزها على أن تحتضنه بأصابعها وتسطر رسالتها:

أن تهمس حبا أو تعلن جهرا، ما عاد القول يرضيني، ما عاد ما أطمع فيه من كلمات تنساب في ليل ممطر؛ لتجف مع شعاع الصباح الناعم..

لقد مللت رنين النبرات حين ترتطم بزجاج الصور المعلقة على الحائط... فلتسأل ضميرك كيف أعبأ بكلام الشوق والوحدة دربي وحياتي؟ وأنا بين حطام الذكريات ارتشف الأحلام والأماني حتى سئمت القول والسكوت، ستجيب: الحاجة، وما بالك بالأمان... الاستقرار الذي يمنح عواطفك الاطمئنان ويقذف بمركبك للشاطئ بعد طول عناء.

ستقول بضع أعوام هي جزء من عمر ممدود وهل نعلم مداه؟ أن لحظات الحيرة في السكون هي قرون من الزمان.

فقط اعلم أن الطفل يبكي ليل نهار! قد ينسى بقطعة شيكولاتة أن يسأل عن أبيه، سيصير شابا في لحظات وينسي حلوي الدنيا، ويتذكر فقط فقدان

أبيه، قد يلومك لفظا، وقد ينفجر تمردا في الضياع، وأن صانه الله سيبقي في صندوق النفس شيئا من بغضاء.. من معاناة، أما أنا ساحتفظ في صدري بكل الآلام وارسم بسمة للأطفال، لكن لا أعدك بالاستمرار فمنسوب النهر فاض بالأوجاع.

ختاما أرجوك أن ترحم أجنحة صبري من الاحتراق بلهيب الأشواق... عد يا رب الدار بالمنام لأهله، حينئذ ينطق اللفظ حبا ويتزين الجدار بصدوع الضحكات.. ووقعت في طرفه زوجتك منذ أعوام ولمدة أيام!

***

في فضاء الفيس بوك

مهما أحكمت أسوار الزيف، وظننت انك بجدار الوهم أغلقت منابر الشوق، ستبقى أشعتي تخترق الحواجز وتعبر الحدود.. تغلف أحلامك وتوقظ توهج نفسك، كلما ارتشفت باسما كوب النجاح، ستداعبك نكهة صوتي.

فلا مفر مني، لأنك تكتحل بضياء شعاعي، فما يمنع الرجل الشرقي من الاعتراف سوى خوف من الفراق، أو رغبة فيه.

نعم.. ستظللك أوراقي من حرارة الخوف اللئيم، الذي يعزف أوتار الحزن بعينيك، حين تغيب حقيقة الأمور، فأنا من يشعر بارتجافك كل مساء.

اعلم أنك تتناسى تمايل أغصان حياتي بتلألأ صفحتك فتبخل، هل تعلم سأخادع قلبي، واعترف لك انك لا تزور أحلامي، لا تسكن ملامحك وجداني، وأني لا احفل بتفاصيلك، ولكني فقط افتقدك فور غياب نبراتك عن اذني، واشتاق لمرأى اسمك على هاتفي، وانتظر تسلل أناملك تهديني زهري، فهل أصابني الجنون!

أم أنه مرض التعلق ببسمات الزهر على وجنتي، حتى وأن لم تأتيني بها ستظل لأوراقها وجود ناعم بحياتي لأنها من نبت أحلامي.

وضغطت إرسال في عجالة خوفا من أن تكتشف عيونها جرأة المعني فترفضه، فأغمضت عينها لتستمع بنبرة الرسالة المنتظرة، بعد ثلاثة أيام... لم تجد غير صمت التجاهل يسبح في فضاءها الذي نقشت ملامحه رسالة تعارف وحوار طويل يمزج بين الإعجاب، والتلميح بالاشتياق الزائف للتواصل الفكري، فتذبل النبتة الحالمة بضغط على اختيار جديد لم تطرحه أفكارها من قبل، حظر!!!

***

فراشة بلا أجنحة

غازلها: اخترتك لأنك فراشتي الملونة سر بهجتي وربيع أحلامي.

هي: كم أحزنتني، فالفراشات تطير دوما لا تسكن زهرة واحدة، كنت أتمنى أن تهوى روحا لا شكلا... فما أقصر عمر ألوان الفراشات!!

هو: إذن هل حان موعد فراقنا أم قذف الزمان بالفراق ومضى، هل غابت شمس سمائنا أم طال بكاؤها في الشروق؟ لست ادري ما يعتمر في الخلجات!

لكني أشعر بأطياف أنفس وأزمان تبحر وتعبر كل الطرقات من قلق وخوف وهلع ومن ضعف وسقم ومرض؟

هي: ما بك! تقبل وسرعان ما تدبر.. تمنحني الحياة وتسلبني إياها في لحظة.. تسري نشوى في دمي تمنحك لذة الهوى ثم تمضي!

هو: أتتحملين بعدي؟! وتتركيني أناجي قمري بعيدا عن بريق عينيك، أما أنا فلن أتحمل غياب صوتك، وسحر شفتاك حين تغرد بأروع الألحان، تلك التي تعزفها همساتك على قيثارة الأحلام.

هي: كانت أوهام.

هو: أوهام... نبض حياتي وهم أم صورتك التي تحجب عني مرأى كل النساء وهم!

هي: النبض خفت قوته، حين أوجزت العلاقة في لحظات الربيع، وتناسيت أن فصول السنة أربعة، احتاجك في كل لحظاتها تدفئ بردها وتنعش صيفها.. ارتمي هروبا من الخوف في أحضانك بلا تردد.. لكني أستيقظ دوما من حلمي على غيوم الحرمان تلبد سمائي، بأوامر قطيعة تبتر فرحتي، وتغيب عني هدوء البال؛ ليبقى في النفس سؤال: إلي متى ولماذا؟

هو: تصرفت بقسوة الوالد خوفا على الوالدة البريئة وشغفا بها، أنوي حمايتها من نظرات الغرباء، أسجن ملامحها في عيوني أنا.

هي: لست مجرمة لأسجن... لست مذنبة بقر بك.

هو: أنت معشوقتي وهذا قلبي.. أتقبلين اعتذاره عن غباء عشقه.

هي.. أقبلت عليه تهمس: وهل لي وجود بدونك!!

وهنا ذابت أجنحة الفراشة من نيران الوصل.

***

لقاء الحقيقة

حدث نفسه أمام مرآته الخشبية، سأعبر الطريق ناثرا عبقك بين أسوار البيوت، لعل حمرة زهرك تغتال حلكة الأحزان في فضاء الشوارع ليلا حين تنام العيون من وهج القلق، وتستيقظ القلوب الحائرة لتنفض أوجاعها خارج أسوار النفس؛ بحثا عن دمعة ترطب أو لمسة تدعم.

ولا يبقى من اليوم إلا نسائم تعطرت بوجودك بالطريق، إن لم تدرك وجودي يكفي أنني بك استنشقت الفرحة البريئة كطفل يسعده ثوب العيد.. أنت عيدي الذي يأتي كل صباح، حينما تجمعنا الخطوات لنهاية الشارع، تنتظرين حافلة العمل، وأتمنى غيابها، وأملي رفيقي كل مساء حين تجمعني بك الأحلام.

لم تجذبني إليك روعة هذه الإشراقة الغامضة ، ولا سحر تمايل أشعة حنانك ، وهي تمد أيدي العطاء، وتكشف بين غيوم الأيام ومضات الإرادة والإقدام، بل لأنك وسط الكون عنوان النقاء.

حين تتأرجح بسمات ثغر الأيام، تناديني زهور الماضي المجففة بين طيات كتبي، مازالت تحمل أريج البراءة، ومازلت أحمل لها نشوة الاستمتاع الصامت.

هكذا طلتك عندي، فأنا الرجل الشرقي الذي مهما ارتقي تبقي النزعة لوجود المسافات، فستظل أغصان الحياء والمودة والإخلاص المتشابكة ملامح زهرة الأنوثة الحقيقية في أكواخ الحياة المتهالكة ما بين الرفض والقبول، التمكين والتهميش، تبقي الحقائق خالدة.. أن كل أنثي هي الزهرة التي تحتمي بأشواك من القيم والحواجز الاجتماعية.

تعالت أصوات أغنية أم كلثوم من المذياع يا صباح الخير.. ثم تلاشي الصوت.. أنها عادتها قبل النزول.. فتح باب الشقة مستبشرا بمرافقة خطواتها على دراجات السلم.. وها هو الباب يئن لخروجها، لكن.. ليست وحدها.. من هو!، جمدت ملامحه وهلة محاولا التنفس.

جاء صوت الأم مودعة لهم، وهم يهبطون بسلاسة وثغرها مبتسم، في حفظ الله لا تتأخر على الغداء يا علي، ونظرت لوجهه متعجبة، اتفضل يا أحمد على الغداء معنا بمناسبة عودة زوج بنتي من السفر.

لكن أحمد.... عاد لزهور الماضي بين طيات الكتب.

***

همس

أيبقى دفئ شعاع الاشتياق النهاري يحيط بأسوار النفس؛ لتنبض الأماني بلقاء الذات، أم ستجتاح أمواج الزمان براءة اللقاء.

تجذبني خطواتي لغابة الذكري، حين تزور الصور العيون، ألمح بالحوائط خيال الماضي، وأسمع همهمة أوراق شجر الحياة ، تنادي طيفي برقة الفراشات، لكن سرعان ما أفيق على ظلمة كوخ الواقع، حيث تتبدد الأحلام، ويخترقها طنين الأوجاع.

دائما هناك زهرة ذبلت من الانتظار بين صفحات الماضي، لكنها تحتفظ بشذى العشق البريء للحياة، حيث لهو الطفولة وطموح المراهقة واندفاع الشباب، واظل أعبث لعلي اجد ضالتي، هدوء الماضي وبراءة الحلم وصخب الفرح، حرية السؤال ولهفة انتظار الإجابات.

أنه عبث طفولتي، لن أمله يوما حيث تطلي الحياة بمزيج دافئ من ألوان الربيع والشتاء في مواجهة خريف الأيام.

وبين سطوري سطرتك زهر اشتياقي، وعنوان طموحي، ودعوت ربي ألا تذبل أوراق الحياة فيك.

فالحياة... تفاصيل تمتزج في وجه امرأة...

وحدوته نسائية يسطرها الذكور وتعيشها كل امرأة.

لكن...تمر الأيام ومازالت زهرتي بين الصفحات.. لا أمطار.. لا أحلام.. فقط ذكريات!!

***

وداع صامت

ما عاد لقلمي قدرة.. أنهكته كثرة المواجع، كل يوم يسطر حكاية جديدة عن الفقدان لمعاني الحياة، وكأن المعاني تنتحر واحدة تلو الأخرى من حياتنا وبأيدينا.. وبعدها تدمع ألاعين لحظات... وتشرد النفس لأيام... ويبقى السؤال دائما بلا إجابة ما السبب؟

هكذا كتبت في مذكراتها ووقعت بتاريخ اليوم.. أيقظها رنين الهاتف يجيبها بصوت حنون: كيفك، هي: لا جديد مازلت أحيا، هو: جيد، أذن لا تنسي أن تحضري كذا وكذا للغد وترتبي... وتتصلي... سلام، انتهت قائمة الأوامر، وأغلق الهاتف، وبقي صوت أنين صفيره يدوي في الحجرة، لململت أشلاءها ووقفت أمام مرآتها تحلم، لتمسك قلمها

وتسطر: اكتشفت مؤخرا بأننا لم نمتلك حلم مشترك، وأن كل الأماني كانت سيل من الدموع وتبخرت، وأدركت متأخرا أن الفكرة كانت دوما أن تستقبل العطايا، هدايا من مشاعر ورعاية، بلا جيوب أثوابي، فلا اخبأ الهموم، وقد كنت لا امتلك سوي الحزن رفيق.

أما الآن فقد أدركت.. الآن فقط قررت، أن أجمع ثياب الماضي، وأحزم

حقائبها لتلقي في نهر الغد، فمن لا يصون الحلم لا يستحق رفاهية الحزن!

وترسم في نهاية الورقة زهرة تتساقط أوراقها، وتذبل على سطح مرآة، انتقت لون فيروزي هادئ غابت عنه نقوش الحياة الصاخبة واعدت مائدة الانتظار، جاءت نغمات القلق مع صرير الباب تتدافع مع وقع الخطوات.. لم تخرج الحروف المتعجرفة من بئر الجفاء، بادرت بصوت ثابت لأول مرة منذ سنوات.. اجلس هنا واصمت،فالحديث اليوم ممنوع..

أترك المجال للشموع والزهور.. جذبته من معصمه حيث بريق ساعته الفضي يعكس دمعتها على سطح المائدة.. وأطفأت أنوار الحاضر بزفير ملتهب، قائلة لا تحسن الظن دوما بصبر الشموع!

حين تذيب حرارة الصبر المشاعر لا تبقي لك منها ألا غيمة الوحدة، وها أنت فزت بها.. لتستقبل صرير الحرية ببسمة وحقيبة بلا ذكريات.

***

وولد القمر

تقف في الشرفة بجواره تناجي آلامها وتحادثه، تعبت، ألا يظهر لهذا الليل قمر؟ ألا تشق الكلمات طريقها اللحمي للخروج.

فمنذ أعوام لا اعرفها وانت هكذا، عينان وجريدة، يد ومائدة، جسد وفراش، حرمان من اللحظات وزراعة أهات صامتة تتنازع مع روحي وتحفزني، فأنا دوما أريدك عقلا وقلبا، صوتا وصمتا.

عزيزي.. اسمح لهذه الملامح المنقوشة على وجهك أن تتحرر من سجن جمودك، أم أن وجودي سراب يلوح ويختفي كومضات مرتعشة.. تصمت، تنتظر جوابه بما يطفئ النيران.. إلا أنه يظل صامتا ينظر لها كلما طوي صفحة مما يقرأ، فلا تجد ألا الدموع تجيبها منسابة صامته.

يهب النسيم البارد ، يحتضن شعرها الأسود، ويأرجحه فتتمايل معه، تستجمع قواها وتقف ثابتة تخطف صارخة في حركة مباغتة الجريدة: لقد أفقت فهل تفيق أنت؟

نعم اليوم أدركت أني طائر مذبوح ما لبث أن لهث أنفاسه ومات لأنه بعيدا عنك، اليوم أحسست برجفة البرد تعتصر أضلعي فأنت كنت الدفء

الذي غاب، لقد مللت حزني فأطلق سراحي حتى أدفن هذا الجثمان لينعم بالراحة في صندوق النسيان وتنعم أنت بصمت الفراغ المطلق والخواء.

اتركني أعيش ذكرى اختارها وأمحو من حياتي لون الظلام.. اتركني أطلق إصبعي من قيد هذا الخاتم فقدْ فَقَدَ البريق واللمعان.

همت بالانصراف وقد كسرت كلماتها قيود الحزن، فإذا به يحمل يدها بين يديه.. يقبلها.. وتشرخ كلماته صمت الليل الحزين، أحبك ألا يكفيك من سيل الكلمات هذه الأحرف... أحبك، وقد نطقت عيناه بها دمعا يرطب الجفاء.. هنا تلألأ الليل بولادة هلال جديد.

***

ذبول

كم تمنيت أن تهديني زهرا أحمر، أرجواني، و أن تقتحم أسوار قلاعي متسلقا بمرونة لاعب محترف للجمباز، يرنو لميدالية تتويجه بطل همام وحيد في أرضي.

حلمت مرة أن الزهر بقنينتي على مائدة الصباح، حيث أحاديث الأماني الطيبة بيوم سعيد واستيقظت ابتاعه من أجلك، لا بل من أجلي، قدمته لك يوم العيد، (شكرا) صوت بارد ارتطم بأحلامي، وصدى حروفك تجرح خلاء النفس.. ويزرع الصمت السجين في أفق الحياة.

تخبو الألوان الصارخة ، وتمرح الذكريات الرمادية تلك التي أغلقت عليها حقيبة المدرسة، وقت البراءة هل مضي؟، أم أن موسم الحصاد هجر حقولي وهرب.. ناسيا معزوفتي التي تتلون كلما داعبت أوتار أشواقها باشتياقي للحياة.

دوما تولد الحياة من رحم الصعاب.. فلا جفت الأنهار، ولا باتت الشمس في أحضان الغيوم..أنها فلسفة البقاء.. أن تحبو في كف الزمان أحلامك حتى تشيب الصعاب، ويظل الحلم وليد اللحظة الآنية... سأبتاع الورد رغم سكوت المكان وذبول الزهور على أريكة الانتظار.

***

عذراء الليل

فتحت نافذة الغرفة الخشبية، تستقبل أشعة متسللة من شمس النهار المختفية خلف جدران العمارات الشاهقة التي ألقت بظل حزين على بيوت الحارة، وقلصت مساحة الرؤية للشارع الرئيسي.

توشحت بعباءتها حالكة اللون، حيث تغيب صفرة أزرارها خلف طرحتها المنقوشة بتشابك لوني غامض مثل صمتها وهدوء أنفاسها، خرجت تحمل أوراق مرتبة.. شهادة ميلاد وشهادة مؤهل وبطاقة.. وقائمة بأسماء شركات ومحلات في المدينة الصاخبة...

جذبت جدية خطواتها نظرات المارة دون تعليق...وكأن جمود تعبيراتها كتب بخط واضح (لا مجال للحديث)، عبرت الشارع الرئيسي، وغابت سمرة طلتها البسيطة في زحام المارة.

تدخل بنايات ومحلات بتردد، وتخرج مسرعة؛ لتلحق بمسيرة المارة قبل ظلام الليل، رحلة يومية اعتادت عليها، وتعرف مسبقا نتيجتها ولكنها لا تمل..تخط في قائمتها اتجاه رحلة الغد للبحث عن الحياة.

وما أن تعود لغرفتها، وتغلق نافذة الصخب اليومي، حتى تتحرك تلك

العيون نحو مرآتها المعلقة بجوار باب الغرفة المغلقة.. تخلع ثوب النهار، وتتباهي بقميص يتوهج بحمرة الاشتياق، تسدل تلك الخصل المتعرجة من طول القيد..وتتمايل على أنغام أحلامها.

تفتح ثغرها لتدندن بهمس خافت.. تناجي الأمنيات على صوت مذياعها الصغير.. فاختيار النغمات رفاهية لا تملكها،ولكنها تتقن الاستمتاع بالمتاح منها، مثلها ككل متطلباتها الإنسانية...

تسقط ذات الثلاثين ربيعا على فراشها، تسطر رواية جديدة كأنثى لم يغب عن مسامعها حديث الأحباب حيث استقرار الحال.

تقذفها الروايات كل ليلة من وظيفة لأخرى، ومن زوج لحبيب.. حتى الذوبان في نعاس صامت، لا يزعجه سوي صوت رنين المنبه وأصوات جلبة الحارة.. لتفتح أحلام نافذتها الخشبية، فتقتحم الحارة بصخبها أجواء الغرفة.

تسرع لتقيد خصلاتها المتمردة عليها وتغلق مذياع الليل فقد حان وقت الاختباء بعباءة النهار..

***

حلقة هندية

بعد متابعة حلقة درامية هندية الصنع لبنانية اللسان، تعجبت وأخذت الحيرة طريقها لعقلي، يلهون بطقوس، يحبون بطقوس، يعبدون بطقوس، لكنها جميعا تتفق في شيء واحد رغم تعدد مناسباتها، هي فكرة البهجة، حيث ثوب التقاليد يغزله نغمات راقصة ، وتلبس فتياتها أزهي الألوان.

لا أدري لماذا تذكرتك بعد مرور السنوات على رحلتي بحثا عن العيش بكرامة، لعلها الرغبة في المقارنة، أم الرغبة في رسم فلسفة البعد حينما اختفت في وجودك كل الألوان، وغابت المراسم ألا من العزاء.

لذا قررت أن اقلع عن مشاهدة مثل تلك الحلقات، فالبهجة قد تصبح مصدر أوجاع خاصة عندما تغيب شمس قلبك للأبد، وتترك بيوته تنعس في سبات الليل الطويل.. بلا إفاقة بيوتي، لا تنعشها أنابيب الأكسجين، ولا أقراصك الملونة التي تصطف بأدراج صندوقها الوامض في الظلام بأحد أركان الغرفة الشاحبة.

فنغمات صوت الممرضة الشابة حلا تربت على أحزاني كل مساء مع صوت نشرة المذياع- التاسعة بتوقيت القاهرة- الذي أحضرته لي منذ

أسابيع؛ ليعمر الأجواء بالصوت بعد أن هجر الزوار الغرفة لطول المدة، وبقيت أنا.. وحلا الصبية التي تنهي ورديتها بتوقيت المشفي، وترحل مودعة لي بابتسامتها العذبة..

وجرعة المسكن الليلية.. التي تمزجها بأقاصيصها المملة عن غلاء الحياة وقسوة الشارع، لا أذكر مرة أني تفاعلت معها بالرد، ولكنها تأبي أن تصمت وأرفض أن انهي حديثها، فالاعتياد له صار جزء من طقوس اليوم، بل لعلي اشتاق له لو تأخرت عن موعدها دقائق لاحتساء الشاي أو النميمة مع زميلاتها هربا من أعين المشرفة، اليوم الجمعة أم الخميس ما عادت للأيام ترتيب عندي لكن بالأمس غابت حلا، فالجمعة عطلتها...

واليوم هو السبت ستأتي محملة بأقاصيص جديدة عن السوق والجيران والفرح الذي نصب بالشارع الخلفي لمنزلها وأضاع عليها فرصة التمتع بالفيلم العربي المذاع للمرة الألف والتي غالبا لا تذكر من أحداثه سوي مشهد أو اثنين للبطل الرومانسي الحالم..

تومض عينها ببريق غريب يعكس معني فقر الروح كلما تذكرته، مضت الدقائق والساعات حتى أعلنت محطة المذياع التاسعة ولم تظهر حلا، وتناوبت أوجه كثيرة على الغرفة، غابت ألوان الأقراص، وبدأت الظلمة

مبكرا، حيث اتشحت المرضات بصمت الحزن..

غابت حلا والفاعل.. قسوة الشارع... ودقت طبول هندية في أذني تعلن بدء مراسم الحرق لأغصان نضرة، لم يكتمل نموها.. وهمهمت ثريا لي... كانت حلا تقتنع أنك تحب الإصغاء لها، وترفض الاستسلام للتشخيص الطبي، كما كانت ترفض الركوب بالمواصلات العامة، وتهوي مغامرة الطريق حتى ابتلعها تحته.

جاء الهواء البارد من نافذة الحجرة ليشتت صوت ثريا عني التي تشد أسلاك المذياع لتهجر الأصوات الغرفة وتمضي....

***

هجرة الواقع

ترنحت زجاجة المياة راقصة بين أنامله، وهو يحاول الثبوت في مواجهة تمايلها المستمر.

إن حركة مياهها تعكس ألوان خشبية لأثاث بسيط يحيط بجدران زخرفتها السنوات بخدوشها.

وضع الزجاجة بعد رحلة دقائق على منضدة صغيرة تستند على أريكة باهتة يميل لونها للاخضرار بنقوش كانت ذهبية يوما ما.

أخذت خطواته في الثبات نحو أريكة الوحدة كما يحلو له تسميتها، حيث تشاركه الساعات الصامتة الخشنة مع أفكاره الحزينة تارة وذكرياته التي يتجرعها يوميا حتى يشفي من أوجاع الانتظار الطويل.

فمنذ الأعوام الكثيرة الماضية التي تعدت أصابع يديه المرتعشتين وهو يقبع في روتين يومي سقيم، فمنذ أن تقاعد وهو فاقد للأمان عازف عن الاجتماعيات تتربص به أوهام الحيرة والقلق من كل شيء حتى دقات الساعة القديمة المستندة على حائط بلا نقوش أو صور.

لم يعرف سامي طيلة حياته غير العمل، فقد عاش طفولة جادة لأب ضابط،

وأم لا تحمل من الحياة غير قلب يتسع لكل أسرتها، غير أن نشئتها الريفية أبعدت روحها العذبة عن أطار اهتمامات الحاضر اللاهث في سباق التغيير.

لم يتعلم في طفولته المبكرة معني اللعب أو مرح الحياة، كانت الأوامر والنظام دستور يحكم المشاعر قبل السلوكيات، وقضبان من الممنوع والمحظور تحجب عيونه عن الحياة الاجتماعية، وتطارد أحلامه في عامه الأول الجامعي حيث ألتحق بكلية عملية مرموقة ضيقت من حصاره أكثر فأكثر... لكن كانت حالة الاندماج مع قوانين الحصار تزداد بشغف وتسابق معها على الصرامة والدقة في التطبيق.

حارب كل نظرة اهتمام أو انجذاب من الكيان الأنثوي المتلهف لاقتحام أسواره الغامضة لتحطيم أسطورته بالكلية...

أفاق من غفوته على صوت مواء القط المسكين القابع أمام الشقة منذ عدة أيام ،كان صوته يذكره بدلال صوتها في المنزل، عندما تدندن أو تحاور الزهور بشرفتها، لم يختارها فقد كان زواجه بند من مراسم شكلية للدستور الوالدي، لكنه اعتاد وجودها بحياته كما لم يختار ضعفه أمامها وفرحته بحنانها وصبرها عليه..

تذرف الأيام الدموع على فراقها منذ شهور ثلاثة..يتذكر كيف ارتدي

رابطة عنقه الحالكة متجهما لم تفارق ملامحه نظرة الحائر اليتيم.. عاد لمكتبه الكلاسيكي ترتجف أوصاله، رغم حرارة يوليو... أتفارقني بلا قواعد بلا اتفاق...

تذكر هذه الليلة وأقبلت خطواته المرتعشة على درج مكتبه تخرج قصاصات ملونة تنسم فيها رحيق مشاعرها حيث تسجل بها وحدتها في عبارات مختصرة.

تصفحها كعادته اليومية غير أن هذه الأخيرة استوقفت نظراته طويلا: "الغد يحمل لك حزنا ليس لفقد وإنما لهجر... ستهجرك المشاعر الطيبة لتسكنك الأوجاع للأبد"، كتب أسفلها:

أدركت يا حبيبة لم تسعد بالقرب، وأعدك أن آتي بالشوق... بموء القط ويسكن المكان.

***

وجوه ونقوش

كانت تهرب من صياح الليل المكتوم بغفوة، تغلق نوافذ القلق لبرهة في وجوه الزمن المتغير، تستظل بشجيرات الأمل في صباح دافئ حنون يحمل للجميع شذي الجد والتعاون والأمان.. والعطاء.

العطاء تلك الكلمة التي تحمل لديها مدلول الزواج والأمومة والمسئولية، كما يشتق منها أسمها، عطية، اسم أدركت بعدا واحدا منه دوما هو الإيثار..

أن تقدم وكأنها عطية الله للناس جميعا لتقديم الخير والمعاونة لهم، استيقظت الحياة بالبيت في السادسة مع صوت المذياع المتسلل لجوف الحجرات بنعومة تلاوة الصباح بصوت الشيخ عبد الباسط، التي تمتزج بأنين حركتها المتملة لإعداد وجبات الأطفال، حرارة الموقد الغازي الحديث لم تنجح في تدفئة حوائط المنزل المتصدعة ببرودة المشاعر، حيث يمتزج غبار الماضي الرمادي مع أشعة الشمس المتسللة بخجل عبر النوافذ.

كانت تتحرك بأناملها بينما تفكر في ذات الحلم الطفولي اليومي، تحتضن وجه دميتها القماشية، وتلهو بتلوينها بحمرة الفرح، ترسم على وجنتيها الزهر، وتكحل نظراتها بشقاوة البال الخالي.

دقت عقارب الساعات دقات خافتة.. هي مؤذن الحرية لها.. تحركت الأطراف الثقيلة نحو أبواب الشقة ذهابا وإيابا تأمر وتجمع أغراض اليوم بكسل.

ومع صرير الباب الخشبي القاتم فتحت الحياة باب اليوم الصغير لها.. تناولت كوب الشاي الساخن وهي بشرفتها تودع الضغط العصبي وتقذف خلفه كل التوترات الليلية، ومع ارتفاع صوت محرك السيارة ارتفعت طيور السعادة بسمائها.

وجاءت أصوات صياح الشقاوة الطفولية، وضحكات الأمل تحتضن قلبها.. ماما صباحك سكر.. نقوش الحياة العفوية تعلو الوجوه من جديد.. وتختفي الأدخنة ليعم النور المكان حتى يحين موعد نقش الجمود من جديد.

تكرار النقوش لم يعد يشغل بالها، فالاعتياد سمة إنسانية، لكنه ذلك الحلم الطفولي ما يخفق له قلبها بقلق، ولماذا يقتصر الحلم على الدمية تلك التي تركتها منذ عقود بمنزل والدتها...

تتذكر أخر لقاء بها كانت ترتب حقيبة عرسها والتقطتها من فوق سريرها الصغير حيث كانت تزاحمها الأحلام..

قبل أن تكون هي بطلته الوحيدة...همت أن تضعها بالحقيبة، فإذا بيد

أمها تقذفها بخزانة الكتب مستنكرة رغبتها، .لبثت الدمية عشرة اعوام بخزانة خشبية، وعطية بخزانة حجرية، تغلق على روحها الفكر والفرح، فهل حان وقت التغيير؟

لم تنتظر عطية ثانية بعد هذا اليوم.. خرجت مودعة ظلام الجحود القاسي، وفتحت باب غرفتها القديمة، رتبت بشغف خزانتها القديمة..

ابتسمت واحتضنتها بلهفة أول مولود لها، نظفتها من النسيان، وجمعت ألوان الربيع وجلست وأطفالها على مائدة المنزل تنقش أناملهم زهور الغد على ملابسها....

فما عاد لصرير الباب الخشبي مدلول حيث غاب القلق وعادت عطية تنبت فيها الحياة.

***

مملكة الحلم

تناثرت أحلامها بفضاء الوجود، حين تلاقت أمواج السعادة بالنجاح مع رمال سكنت من كثرة المعاناة... مزيج غريب من ضوء الليل وغموضه يفترش شاطئ اليوم... صوت كمان تعزفه حركة الهواء بأوراق الشجر الناعسة، وعبق اليود ينعش نشوتها للحياة..

تنفست بعمق؛ لتغمض عيون قلقت طويلا وذبلت كثيرا، سنوات من المذاكرة الطويلة المترددة بين رغبة اللهو الطفولي وحطام أمل لم يستمر، حين أعلنت الأرقام اضطرارها للهروب إلى إحدى كليات الصف الثاني.. تتذكر هذا اليوم جيدا.. حين خطت خطواتها الأولي مكبلة بقيود مجتمع يزن الأشخاص بأوراق وعلاقات.

كانت ترتجف بردا من الخجل أمام نظرات أمها الحزينة، لم تحظي يوما بهذه الفرحة المنشودة منذ ذلك التاريخ..

سلسلة من الإحباط المتتالية تترابط في عقد أيامها، إلا أن بزغ في سماءها نجمه.. وهتف نبضها بالحنان له.. احتضنت أحلامها فيه..

وأهدته كل باقات الأمل.. زرعت بحجرته رياحين الود والجد والإصرار.. لتنمو بسمتها مع نموه.

اليوم فقط غادرت الفرحة سجنها وتناثرت بالأجواء.. وطبع الزمن على جبينها قبلة شكر ابن حان بار.. وقفت كثيرا أمام صورته المعلقة على جدران كل حجرة وهو يكرم كأنبغ شاب متفوق.. تمسح أطرافها برفق.. و تروي براعم الرياحين بنظرات الحمد... أيقظ روحها من نشوتها صوته أمي... أين الأكل اللذيذ يا ملكة المنزل؟

***

أمل

لا تعتقد أن نباح الكلاب دليل قوة موقفها، واحذر من همس المظلومين لربهم فما غطى الصياح ألا على الحنين وقتل الحب في مهده الوليد.

همهمت أمل بهذه الكلمات وهي تغلق شرفتها الخشبية المطلة على الساحة الخلفية للحي حيث الفضاء الصامت...

لا يجرحه سوى حفيف الأشجار العتيقة الحارسة للمباني المتزاحمة في صفوف معوجة النهايات.

اقتحمت خطواتها الطرقة الضيقة الفاصلة بين قطبي المكان وصولا لمقرها الحار في جميع أوقات العام، حيث تصادق أمل صراحة النار ووضوحها في إعداد الطعام، وتعجب بمسامع الإذاعة الممتزجة برنين الأواني المعدنية، أصوات محددة صريحة لا تحمل مضامين نفسية.. جافة من رطوبة الأحقاد والمطامع.

عزفت أناملها لحنها الروتيني اليومي بمهارة لم تعكرها دموعها الدافئة المستمرة فقد أصبحت أحد ملامح يومها المنزلي، وفي خضم العزف رن الهاتف مداعبة أذانها بصوت أنغام.. اكتب لك تعهد.. تذكرها بالقرار

المؤجل لاختيار الحرية والنجاح في مقابل الثبات والاستمرار.

أتي صوت مدير العمل يهنئها بنجاح جهودها وتميزها ويحفزها على الاستعداد لمهام جديدة محددة الزمن والنتائج.، دوما مهامها محددة النتائج المعلنة قصيرة المدى، متلاحقة كموجات متدافعة نحو رمال الشاطئ حتى تهدأ النهايات..

لم تسحب مكالمته بساط الحزن من روحها، وكأن عجلة اليوم تترنح بين مواقف الإحباط والحزن؛ تنفست أمل بهدوء لاستعادة الأكسجين المفقود بين جنبات المشاكل...

دخل متجهما كعادته وأغلق باب الهدوء معه.. لتنطلق نغمات الضجيج عتاب ولوم ومحاضرات في إنسانية الحياة الراقية، نعم حياة وإنسانية ورقي كلمات لا مدلول لها إلا رنين خروجها من الرأس المتوهجة بأنانية المجتمع الذكوري..

أغمضت عينها لوهلة وأخذت تدندن.... ممكن تسيبني اشتري عمري اللي باقي قول بكام....

حتى لمست أحلامها كفوف ناعمة صغيرة نظرت بحب واحتضنت ملامحها بنظرة واحدة ... لتبتسم ماما.... وتصمت الأغنية رغم غياب الحنين.

***

مرادي

أخذ يبحث بلهفة عن ساعة معصمه الفضية ذات الرونق الأوربي الراقي، لتكتمل رتوش لوحته المرسومة بعناية، بدلة تجمع بين زرقة الكدمات وقتامة أوجاعها، وقميص وردي ككلماته المحفوظة لكل موقف، صورة يومية تتنوع ما بين الحدة واللين مع تغير حالته المزاجية، لكن دوما بالصورة جانب محير لكل المحيطين.

تدق أجراس الحياة معلنة بدء يوم عمل صاخب برنين هاتفه وأحاديث العمل، صوت رخيم وكلمات جوفاء تخلو من أحاسيس الإنسانية..

كان مراد الشاب الأربعيني العمر ذو الملامح الشرقية الأصيلة يهوى التألق الخارجي، وينتقي سماته بعناية فائقة، كانت هذه العادة سره الصغير، منذ أن نهرته صديقة الطفولة لقصر قامته حينها، ورفضت زميلته الجامعية قبول هيامه بها لضيق ذات يده.

قرر أن يكون المرغوب دوما.. المبهر للجميع.. ابتاع الشكل الجاحد لكل عاطفة إنسانية من سوق الفساد، استقل حافلة التملق في درجتها الأولى؛ ليجد لنفسه موضع بين الكبار.. يقف فيه وحيدا تفصله عنهم خطوات من

الانجاز والفكر، وتقربه الأحلام والإصرار.

حتى ظهرت تلك السمراء النحيلة بقاعة مكتبه ظهرا منذ أسبوعين في موعد تنسيقي لشركتها، كانت تتمتع بهدوء غامض وسحر الاستقلالية، لم تبهرها أناقته ولا قوة كلماته المرتبة، رغم بساطة مظهرها وعفويته، لكن قوة شخصيتها حررت قيوده، وواجهت ضعفه..

نعم ضعفه المختبئ وراء جدار الأناقة، مرضه الدفين بين ضلوعه حيث جراح الماضي، لماذا سارعت كلها بالفرار من قيوده في تلك المقابلة مع مريم، عذرية مشاعرها الواضحة أم جرأة ملامحها الثابتة، كانت السبب، التزامها بمبادئ راسخة واضحة، أم عدم مسايرتها لتيار النفاق الاجتماعي.

النتيجة أنها مختلفة... يضفي اختلافها هالة من جمال الاحترام والتقدير، وغموض ثباتها وسط هذه التيارات المتخبطة هو سر من أسرارها، اليوم موعدها الثاني معه، اليوم للأناقة سر جديد وطابع مختلف، يفوح منه عطر باريسي حالم، دخل مراد مكتبه متردد يحاور نفسه للمرة المئة... هل يمكن.. والآن.. أن تفتح نوافذي للحياة؟

دخلت مريم بطلتها البشوشة، تحمل أوراق مرتبة بدقة، بدأت فور جلوسها الإعلان عن ترتيباتها للعمل بثبات معتدلة القامة، تنظر بتحدي

له، منذ فترة طويلة لم يستلذ بهذه النظرات، الكل يهرب من مواجهته، إلا هي، جاءت فرحة بها مقبلة بشغف، أنصت كثيرا لكن دون وعي كان يحلل نبرات صوتها وفقا للسلم الموسيقي ويعيد توزيعها نغمات تطربه.

قاطعها.. مريم.. صمتت الحجرة لبرهة ذابت فيها حواجز الزمن، حتى اتي صوتها تحدث نفسها:

نعم يا مرادي.. ستنجح إن فعلتها فاطمئن.. أودعته نظرة خجلة مرحبة، وانتظرت خطواته المقبلة نحوها.. جلس أمامها وابتسم..

ودارت أحاديث الأصدقاء الودودة على ألسنتهم، لتتكرر المواعيد واللقاءات.. ليأتي صباح بلا عادات قديمة.. يرتدي مراد بذلته ببساطة ويمرح بدرجات السلم مستقبلا تحياتهم الصباحية... ليهديها إليها... حين يلمس كفها المزين بخاتمه اللامع محفور عليه... مرادي.

***

قيد الحسن

انهمر رذاذ المطر اللذيذ يختبئ بأنفاسها، ويسكن ثوبها، يلهو بخصلات شعرها كطفل يشاغب أمه بحنان، ومازالت أفكارها تترنح مع حركة الهواء تبحث عن طيفه بين ظلال الفارين من جمال اللحظات..

لم تعد البرودة والدفء حالتين متضادتين.. فهما دوما يجتمعان بقلبها المنكسر.. ليت العمر كله تلك اللحظة الممتدة، حيث الفرح يحكي قصص عشقه للسمراوات، والعيون الكحيلة.. وهروبه منهن... حيث يكتفي بزيارات مفاجئة قصيرة.. كأنه يخشي آسرهن له في قيد الحسن.

تتذكر لهو أناملها بكرات الرمل المبللة أمام منزله.. وتسابقهما على العدو وسط ضحكاتهما، حتى جاءت الأم مرة بعد أعوام عدة تخلع عنها رداء الطفولة، وتشرح باقتضاب ملامح عهد الأنوثة القادمة.. ليغيب صوته.. وتتبدل الضحكات ببسمة باهتة.. تغلق ستائر النوافذ كل شتاء خوفا من هجوم الانتعاش بقلبها.

وفي يوم الخميس كعادة المنزل الأسبوعية، اجتمعت الأسرة لكنه اجتماع غير تقليدي يشوبه بهجة غامضة،.

قررت الأم فيه أن تتجمل الفتاة بكل ما تمتلكه من فنون وألوان.. بلا موانع.. بلا حسابات...

لم تشغل هالة عقلها بالتفكير في سر هذا التغيير بعد ستة عشر عاما من الاحتجاب خلف أسوار الممنوع، إنها فرصتي لأتحرر ولو لدقائق معدودة..

أجرب ما يحكي عنه بجلسات أمي وسيدات الدار حينما يجتمعن بلا رجال، وتدور ضحكاتهن بهمس تارة، وبصوت مرتعش تارة يحيطه نظرات ترقب للأبواب... حتى وجدتك أمامي شاب طويل... ذو لحية منمقة... كست الرجولة عليك رداء الوقار.. بصحبته غريب عن الحي،. رجل في منتصف الأربعينات، يبدو من طلته الأصل والثراء.

لم تدري هالة وقتها هل تسأله عن أخبار الشتاء دون ضحكاتهما معا .....أم عن سر هذا الصمت الطويل الذي ساد الجلسة .

وكيف لأمها أن تسمح لها بمجالستهما في حجرة الاستقبال، قطع عليها الصمت صوت الأم مرحبة بالرجل الرزين، وأشارت بإيماءة لهالة أن تعود لجحرها الذي ضاق بأنفاسها المتلاحقة المتعجبة من تبخر حلم الطفولة .

أفاقت بعد ساعات على صوت الزغاريد تشرخ جدران الجحر الضيق وتنفذ لصدرها تقطع أوتار الصمت، تهرول لامها التي تقبلها ملقبة إياها بالعروس.. لمن.. كيف... للرزين الوقور ذو الثراء... عماد الذي يملك ضعف عمرها... بالإضافة إلي سيارة ومنزل مجهز بأحد أحياء المدينة المتضخمة بالترف والصخب....

لم تمتلك هالة حق الموافقة أو الرفض لكنها قررت الموافقة كحال بنات البيت، تفرح بالعرس واستعداداته هروبا من الجحر، إلا أن حالها أفضل فالعريس اشتري الحسن بنفيس المجوهرات وقدم لها الثياب الغالية والعطور الفرنسية الجذابة، كانت الأم دوما تردد الحسن له ثمن، وقيده اغلي من الثمن، لم تفهم هالة مقصدها فما هو اقسي من قيد الأم، وما ثمن الحسن؟

في ليلة العرس جاءت الأم تهمس لها بأحاديث نسوة الدار حول واجبات الزوجة، وهالة تحدق.. تسمع ولا تفهم...

كشفت الأم عذريتها النفسية بطلقات كلامية موجهه وسريعة... ومضت تاركه لعماد فرصته الميدانية ليصول ويجول وسط صراخها الطفولي وارتعاش أوصالها المحمومة بخوف ودهشة.

لا تتذكر هالة منذ ذلك الحين عن غير زيارات عماد الأسبوعية و ارتعاشها اليومي حين تحاول النوم تحتضن الخوف والاغتراب... تحت نافذتها المغلقة في منزلها الجديد المفروش بالحديث من الأثاث والتحف.

تحف جمعها عماد بعناية ليسعد بصورتها ويغلق أبوابه عليها كلما خرج لعمله كمهندس بموقع بالمدينة المجاورة.. يعود حاملا الاشتياق مع أكياس البقالة الأسبوعية والفاكهة والحلوى.

تجرأت هالة صباح يوم ما- لا تود تذكر- وناقشته عن الحياة خارج المنزل، العمل؟

لم تع وقتها من الرد غير عبارات انك بلهاء صغيرة لا مقدرة لك على الفهم الصحيح..وسط سيل الاتهامات بالدونية والضعف الذي غمرها به ...حينها أدركت هالة قيد الحسن... وعرفت ما ثمنه!

كان أسعد أيامها أول يوم بإجازته حيث الكلمات اللينة تذوب بعد أول لقاء بينهم، تغلق عينها عليها تحاول حفرها بمخيلتها طوال الأسبوع تتشدق بحروفها بين الحين والآخر، وتنظر لصورته معها بزفافهم متسائلة..

تغيب سنوات العمر ونكتفي باللحظات ثم ماذا ننتظر من الحطام ، ستسكب من أنية الصبر كؤوس يومية تقدمها على طاولة حلو الكلام..لعلها تفتح قنوات الحياة من جديد.

للأسف عزيزي قبل أن تغرب طلتك من يومي غابت المعاني وتلاشت ألوان الحضور والاشتياق، كتبخر الرذاذ المنعش عند احتضان أشعة الشمس للشوارع الواسعة بغياب المارة، لأبقى وحدي بالجحر حيث تقيد الحسان.

***

صرخة جسد

هجم الظلام علي الغرفة وسكن ضجيج الاطفال ورنين الهواتف والتلفاز، وأخذت يده تعبث بجسدها الملقي علي فراشها تحاول إيقاظ الرغبة التي غفلت في سبات عميق منذ ولادة ابنها الثاني.

في ذلك الصيف الحار العرق صديق مخلص لجبهتها حيث تتلاشي ملامح الأشخاص ويبقي منهم رتوش الاهتمام أن وجد..تمرح أنامله بثنيات الدهون.

وتخطط عليها أحلامه، دون مقاومة منها أو علامات للقبول، تغلق أبواب المشهد بالصمت والآنين المتقطع، أمل زائف يصاحب لياليها يحكي عن خيال الصحبة الرحيمة ، بينما تسرع اللمسات زاحفة لأعماق الرغبة في محاولة لاحتلال كهف النشوة.

تغرق هي في حالة اللاوعي ..يوم امتدت ساعاته الثمانية عشر المشبعة بالضغوط تقفز أحداثه أمامها في سقف معتم بظله..

منهكة هي.. عازفة.. ربما.. لكن المؤكد أنها لا تملك حق الرفض المسلوب بقوة العادات البالية والخوف الكئيب من فقدان الظل وكأن مأذون الحي

وقع عقد تمليك نهائي بين انانية الرغبات وقواها المستعبدة..

أنفاسه تتلاحق.. أمنياتها تقتل.. يلهو في ساحة جسدها فرحا.. ونبضاتها المقهورة تتسارع تحاول الهروب من أوردتها..متي يختفي الليل من الحياة؟

سؤال تتردد حروفه وترتطم بآثاث الغرفة الخشبي الشاهد علي صراخ صمتها في ليالي القهر.

دقائق تفصل بين الموت والحياة ..بين الحب والكره..بين الرغبة والرحمة، دقائق تتعطل عندها ساعات الكون لتبقي دوما

النتيجة ثوان من المداعبات.. وأيام وشهور لا تشفي فيها الجراح.. لكن في هذا الصباح.. سأل نزيف روحها بلا توقف، أغلقت أبواب الغرفة علي أصداء صوته، وقررت مقاومة الظل العابث.. وتبتاع من النهار قوة الرفض لتعلن أنسانيتها بالهجر.. ويصمت لأول مرة صراخ الجسد.

***

سماء

هذا هو صوت موسيقي عمر خيرت تنبعث من الحجرة الصغيرة، في نهاية الردهة ، حيث استقبل نغملته الرقيقة في تمام الساعة مساء بعد انتعاش مؤقت بالصوت الملائكي لفيروز.. ثم تنتفض احلامي مع حب رامي وشدو أم كلثوم.

اليوم لم يعد لهم جميعا نفس البريق، حاولت زوجتي الحديث معي وفشلت، حاولت أنا أن اقحم نفسي في عالم اطفالي وتراجعت، فطوال الاعوام الماضية وأنا بالخارج، خارج الدار، خارج الوطن، خارج دائرة اهتماماتهم، "لا يفتح أحد معه الموضوع، اتركوه يستجمع شتاته ويعيد ترتيب أوراقه" همست زوجتي للابنة سماء، اتذكر سبب اختياري للاسم، لاشعر معها بالتحليق في آفاق الأمل، صوت خطوات بطيئة تعبر الردهة، وأنامل صغيرة تطوق رأسي من الخلف: من أنا؟

بطفولية وبراءة جاء صوتها يهزم كل الهموم، لاجيب: حياتي المقبلة، فتسأل مجددا: ومن أنت؟، فاهمس باذنها عنوانك وماضي يزرع لك المستقبل.

تندهش سماء من الكلمات الضخمة علي مداركها، وتفتح فيها وتترك عنقي بسرعة متعجبة، أنا مش هالعب معاك تاني!، أنت زي سعاد مش بفهم كلامكم، وسعاد هي جارتنا الاسيوية التي تدرس بالازهر الشريف ولا تتحدث إلا اللغة العربية الفصحي.

ضَحَكت واحتضنتها لتكف عن ثرثرتها الغاضبة ويستمر قلبي في النبض بالامل ،حتي غفوت وأناملها تداعب وجهي.

في الصباح سمعتها تقف خلف شرفة حجرتها الصغيرة وتحدث النهار بأماني اللهو مع الاقران واللعب بدمي مزركشة، وأن يسمح لها وقتي باللعب والضحك معها كما تفعل الاميرات في قصص البنات، رجفة برد اجتاحت أوصالي ، لم تنتهي إلا باحتضانها ودمعة ندم تحاول الهروب من مقلتي، سماء يا سمائي... فهتفت في سعادة بابا يا حياتي.

تدخل زوجتي باسمة هيا يا سماء حتي يذهب بابا للعمل، فازداد احتضانها لي بقوة وصمت، وتعلقت أنا بهذا الدفء، لا عمل اليوم، غير التحليق في فضاء السماء.

وفي السابعة مساء كانت أصوات الكارتون المدبلج وضحكات سماء تعزف الحياة بمنزلي من جديد.

***

لقاء الآنين

منذ أن تناولت صباحا حفنة من حبوب حبك، وكل اعضاء جسمي تتمرد علي، يسري بها الألم، تحاول أن تهرب من هذا الهذيان المفاجئ الذي اصابها.. ألم هو أم نشوة غريبة؟، لم تكن هذه الحبوب إلا نظرات جاءت محملة بعبق من الماضي يحمل لي كل الحب ..كل الحنان..كل الاهتمام.

هي معاني أبحث عنها منذ أمد..أفتش في أرجاء الدنيا عنها بلا جدوي، حتي انطلاق هذه النظرات اليوم عند شروق الشمس علي صفحة اللقاء ومن فيض نورها لظننت انها تشرق للمرة الاولي بحياتي.

هكذا مر اللقاء لكن لماذا الالام لانك وهمي صنعتك لنفسي وترجمت كل حروف معانيه كما يحلو لي..نعم أنت الوهم الذي يروق لي أن يحياه حتي وأن نبض قلبي بيقين أنك لست لي.

تناولت أقراص مسكني وغفلت، وقد خلد كل عضو إلي سباته بعيدا عن زيف النهار؛ ليخطط لنفسه حواجز من القيم والاخلاقيات، لا يسمح باجتيازها.

في الصباح التالي، اغلقت شرفات الصباح، فلم تشرق الشمس بحجرتي مجددا؛ ليطول غيابها حتي تفتح لها أبواب منزلي يوما ما!

***

نداء الياسمين

صوت تغريد الطيور صباحا يعزف ألحان الخشوع مع اجراس الكنائس، ليعقبه صمت طويل يغفو له النهار، بينما يؤدي يوسف صلاته الصباحية.

يحمل زهور الياسمين من حديقة الكنيسة وبركة دعاء قلوب المصلين، تستقبله أرصفة الطريق بحفاوة الزحام، ليستقل حافلة العمل من ناصية الشارع، تحية الصباح نهار جميل يا عم أحمد زي بسمتك، مقدما الياسمين له، يضحك عم أحمد بصوته الاجش ويرد التحية بنفير الحافلة لتبدأ رحلة اليوم.

في صباح تالي.. في يوم ما.. ذهب يوسف للصلاة، جمع زهوره، وأنتظرها عم أحمد لكنها لم تأتي..

في نشرة الأخبار احتلت الياسمينات الملطخة بدماء يوسف الصورة، وشبح الظلام يحيط بها يمسك أسلحة الغدر، وفي المساء أقام عم أحمد سرادق العزاء مزين بأكاليل الياسمين، لتدق اجراس الكنائس وترفع علي المأذن دعوات السلام تشق الظلام وتغتاله بشروق شمس الحقيقة، ويبقي نداء الياسمين يفوح في الاجواء.

***

ومضات

تصريح جدة

لا أتذكر أول لقاء ولكن ما أحلم به هو موعد آخر لقاء... ويرافقني الصبر يوما والقلق أيام...

أجمع حروف العشق من قصائد الشعراء وانسج بها ثوب الليل... لأنام!

فلقائي بالوحدة لم يبدأ سوى من شهور وكأنها دهور من الزمان، تحولت فيها المساكن لأسوار تحجب شمس الحياة، وسجنت أمنياتي في خيال الصبية ذات الجدائل البنية، ونسيت أن ربيعها الثلاثين يخطو على أبواب قلبها الصغير بلا استئذان.

وما زالت تقرأ من قصص الحب عنوانها وتخشى الاستمرار... تطرب لصوت حالم بلا تعبيرات إعجاب...

فقد سمعت يوما أن رقة المشاعر سبب ضياع البنات...

حين صرحت الجدة في البيت اللبني البسيط... داري كلها رجال لا يعرف سكانها ضعف البنات..

لكن الجدة لم تصرح متى تولد بالدار البنات!

***

لحظة قرار

لن اعتاد منذ اليوم تأمل ملامحك في وميض اللهب وكأن سمرة أبخرته جدائلك تمرح بنسمات الانتظار فتتمايل عبثا بمشاعري...

فللانتظار أيضا أمطار تطفئ الأشواق وتنبت الذكريات...

هكذا قرأت رسالته على ضوء شمعتها... ثم جذبت بأنامل مترددة قطرات ماء، فسطرت رسالتها وأغلقت الستار...

عزيزي الرجل لا تخير أنثى بين الحياة والنسيان... فنسيانك حينئذ حياة!

***

مداعبة الأيام

صوب الضياء أرنو،، حالة مناجاة تفتح أبواب راحة الفؤاد حين استنشق عبير أنفاسك تلهو بغرفتي..

تختلط بمداعباتك الصوتية المتقطعة، كل صباح ومساء..

تمد كفوفك الصغيرة الناعمة لتعبث بملامحي وتبتسم، فأرقص طربا برنات صوتك، وتعدو الأيام مسرعة تخط بسعيها علامات الشباب على كفك، ومازل قلبي يطرب حين تضحك، حين تداعب الايام بنجاحك، وتعود تحتضن قلبي.

***

جدب

بالأمس القريب حدثته: أنظر هناك، بالأعلى تحلق الأماني الصغيرة ترسم اسمي بلقب الصحفية وتخطط قبل اسمك الدكتور الشهير.

لكن رغم غروب الشمس، الحروف واضحة ناصعة البياض كثوب العروس، أراها كل مغيب وأنامل أمي تصفف جدائلي القصيرة بجوار شرفة حجرتنا.

تذكر أخي عندما تجلس لمتابعة حلقاتك الكرتونية، وأغني بصوت مرتفع لأدفعك لمهاجمتي.

كنت أكره انشغالك بغير اللعب معي، وقتها كان للبيت دفء غريب يمنح للحلم مذاق السعادة، لكنه اختفي، هرب مع اللجوء لواقع يعمه الجدب ويسوده العطش لكل جميل وطيب.

أما اليوم وقفت وحدها تبحث عن حلم، فلم يحمل المغيب سوي ألم الفقد والحرمان... وارتسمت بالسحب وجوه الأحباب تنادي بالسلام فهل من مجيب؟

***

رحلة

اعتاد أن يجلس بجوار نافذة قطاره متلذذا باندماج الخضرة بصفاء السماء... حيث تتسابق الألحان لمسامعه مزيج من طرق طبول القضبان وهمس حفيف الأشجار...

لكن دوما بقت الذكري لأول رحلة وأول قطار حين كانت الأنامل تعبث بالمقعد والعيون تحصر النخيل والأشجار ويأتي صوته كفي إزعاجا واجلس بارتخاء...

مضت سنوات ومضي الصوت وبقت الأشجار... واحدة اثنين... ثلاثة... حتى يصل القطار!

***

زهر الانتظار

كم تمنيت أن تهديني زهر أحمر، أرجواني، أن تقتحم أسوار قلاعي متسلقا بمرونة لاعب محترف للجمباز، يرنو لميدالية تتويجه بطل همام وحيد في أرضي.

حلمت مرة أن الزهر بقنينتي على مائدة الصباح حيث أحاديث الأماني الطيبة بيوم سعيد واستيقظت ابتاعه من أجلك، لا بل من أجلي.

أعلم أن عاداتك اليومية كلها تبدأ وتنتهي عندك تتذبذب بين التمرد والتجاهل، حيث تذبل حدائق الأمنيات عطشا للاحتواء.

هي ثقافة ذكورية متجذرة بمجتمع واهي، حاول تشييد الحواجز السلوكية لحجب المشاعر، خوفا من سعادة المشاركة وفرارا من الاستسلام لها.

ورغم ذلك سأبتاع الحب في باقة ورد، قدمته لك يوم العيد، جاء الرد بجفاء شكرا، وسكت المكان وذبلت الزهور على أريكة الانتظار.

***

نائب فاعل

احتجبت خلف عينيه... مررت مشاهد الذكريات ببطئ، وأعلنت العصيان على قتامة مواقفه بلون ناري اقتحم روحه بعنف كوميض أشعة فحص طبية كشف عن مكنونه الرخو... عن فضاء يلهو فيه من الأنانية... حاول تشتيت هجومها المفاجئ بحركات عبثية...

لكن صحوة التمرد غالبا تفوق المتوقع.... صاحت به كنت رد فعلك، ولم تحسب يوما أن المفعول به سيغير مكانه في الجملة...

سيجر الفعل إليه لينوب عنك ولو مرة... تنفست بهدوء لأول مرة، و تملل الوهج رويدا ليختفي مع صحوة عينيها الناعسة.

***

الصندوق المفتوح

تعودت على رؤية الاشتياق في حضورك، لم تبخل يوما بتلك النظرة الفاحصة لأوجاعي، ولم يخن الصمت روعة اللقاء وأن طال اختراقه لقلب الرغبة في الحوار، ولكني لم أتعود يوما هجرة عيونك عن ملامحي فماذا فعلت بي الأقوال لتصادق البعد والجفاء.

تحرك ببطء نحو الساعة وفتح صندوقها الخشبي الصغير، أوقف عقرب الدقائق، وبمنتهي الهدوء رحل... وترك الصندوق مفتوح.

***

همس أم

توهجت وجنتيها خجلا حين تلاقت نظراتهما... فارتبكت الحروف الناعسة منذ سنوات... وأبت أن تخرج للهواء.

ورغم زهر الفرح الذي استنشقت عبيره في أجواء الحياة لم ينبض قلبها الصغير بالعشق... فأبواب الوحدة لن تفتح بنظرات عابرة وإنما بمواقف ثابتة...

هو عهد الطفولة حين قبلتها الأم وهمست لها ... سيأتي يوما فارس يمتطي من جياد الخير والكرم والنبل،ويملك مفاتيح الأبواب لقلبك وعقلك، وحده سينجح...

وحده سيغزو... فلا ترهقي ذهنك بالبحث... سيأتي حين يكتمل القمر في وجهك...

رتبت أوراقها وخرجت مسرعة إلي سباق العمل، محلقة بين حلم الأم وأمنية القلب... في انتظار اكتمال القمر!

***

أوتار ترتجف

منذ أن تباعدت خطواتك عن بابي الموصد، وأنا وحدي.

أتذكر جحود اللحظات المؤلمة، حين تصدعت روحي بجفاء كلماتك اللائمة لاهتمامي الزائد، لقيود حبي وأساطير خوفي عليك، اخترت الرحيل وأردت أنا البقاء.

تحملت صمت الجدران لكن قسوتها تجبرني على الاعتراف.

فمنذ رحيلك لم تنهرني عواصف اليوم أن انظر من نافذتك المزركشة حيث الحياة تتلون ببرودة المواقف؛ لأقذف خارج الحجرة كرات دفء مشاعري، لعلي برجفة رؤية الفرح يداعب اوتار صوتك في مخيلتي يزورني النوم!

***

جبل الحكايات

جذب أوتار الصبر ليعزف أنشودته بإرادة فارس لكنه لم يدرك أن اليوم ما عاد يسطر أمجاد، ولا يحكي عن البطولات.

ينتظر سطوع القمر- دليله في ظلمة المواقف- يحمل حقيبة الأمنيات، ويتسلق صخور النفوس الجاحدة لقمة الإنسانية، حيث تبزغ شمس الحقيقة الخالدة..

هناك حيث تتضاءل كل الأحداث، وتتقزم الأشخاص.. هناك تبدأ الحكايات الطويلة وتدوم.

***

شمس الغد

خلف النوافذ الزجاجية تبدأ وقد تنتهي أيضا أمنيات، دائرة من القطرات تتلألأ في عيون النوافذ، وتمنح للشجن رونق الشتاء، بلا معطف هي..

تزاحم ذكرياتها بأوراق الدفاتر رغبة في دفء مضي، وتوهج جديد يسكن روحها الخاملة منذ أعوام.

تجمع أطراف الثياب المثقوبة بأوجاع الحياة، وتخيطها بلون قرمزي، عشقت فيه توسطه بين الفرح والترح..

بين الحلم والواقع، ومع بزوغ الفجر تسلل للنوافذ بريق أمل جديد ..لتتبخر قطرات الوهم وتسطع شمس الغد.

***

أوتار الطبيعة

ما أطيب سماع أوتار الطبيعة تعزف بصدق.. الفرح والغضب.. الجدب واليسر..

فهي لا تضع مساحيق للتجمل، أو ترسم بألوان الزيف صورها.. بل تكتفي بالوضوح والمكاشفة حتى في أصعب حالتها..

فالهدف محدد والسبل مستقيمة، وإن أعوجت أطرافها تحايلا على غرور البني أدمين، واعتيادهم على النعم والجمال، حقدهم على التغيير لهجومه على مورثاتهم البالية.

اختتمت سطور مقالها الأسبوعي بتوقيع مميز بتعرجه، ومضت ترتدي قناع الناشط الملتهب بنيران الحقد لتبدأ كتابها؟ أين الحقيقة يا قوم؟

وفي المساء.. تزينت بكل أدوات الكذب التجميلية لموعدها مع رجل الأعمال المتصابي، لتبدأ واقع مخطط حيث تتحدث المصلحة الشخصية فقط..وتصمت أصوات أوتار الطبيعة.

***

صبح بلا جرس

اشتهي نكهة الكرز المذاب بابتسامة، حين تنطق عيونك باللهفة، وتحمل أناملك طرف الغطاء الدافئ بأنفاسي، لتستيقظ الحياة في صوتك صباح الهنا يا حبيبي أنا.

افتح عيني على خصلات شعرك تسعي خلفك في رحلة إعداد الإفطار والحقيبة وصوتك بالجكلة المعتادة يوميا..

هيا.. موعد الباص.. الوضوء والصلاة ثم ملابسك على كرسي المكتب مرتبة.. بسرعة.. بسرعة.

لم أكن أعلم أن الوقت يمر بهذه السرعة، وأن الغد لن يأتي بصوتك يوما..

لم أعد الطفل، ولن يدق جرس المدرسة صباحا.. ولكني مازلت استيقظ اشتهي صباحك فأتوضأ واصلي.

***

قطار

صوت ارتطام القضبان بعجلاته الحديدية يدق في الرأس، ودخان أنفاس الزوار يملأ الفضاء..

تعلو اللافتات قاماتهم المنحنية من الهموم.. وصدي صوت بائع التسالي يشق زحام الأجساد..

بعد زمن ليس بطويل رغم مصاعبه تتوقف العجلات عن الصرير..

وينزل جسدي بلا صوت..ثم يعاود القطار المسار من جديد!

***

من مذكرات امرأة عصرية

تجاهل أم برود.. غضب يملأ نظراتك دوما، طلقات اللوم والتأنيب لا تصيب غيري، والنتيجة تهشم ثوب كبريائي، وتناثرت أجزائه في بقاع نفسي، وطالت لحظات الصمت بيننا حتى ظننت أن أوتار حنجرتي فقدت مرونتها، ثم دوي انفجار الهروب..

اهتزت الأرض وأظلمت السماء في ظهيرة الصيف.

وحروف تنطق النهاية..

كفي سأحمل باقات الذكريات الذابلة إليك في قنينتي النحاسية القابعة بردهة منزلك البارد، وامضي أتسوق من بساتين الغد نضارة الحلم وأتنسم حرية الاختيار.

كفي.. سأحيا اليوم بلا أمس.

***

عطر

تزدحم الحياة بالنظرات الدامعة ونختلط أصوات الزحام بأنينها المكتوم.

ارتعاشة خوف تستقبلها كلما فتحت باب غرفتهما ليلا، تخلع عنها سمرة الرداء، وتنتقي من ألوانه المفضلة في سرية ذلك الوردي الذي اهداها يوم ميلادها.

تفتح قنينته المميزة، وتتنفس عبقها، وتنثر قطراتها علي وسادتها، تغلق باب النهار، وتحتضن انفاسه في وسادتها، وتقص لعطره عن يوم مضي حتي عناق يجمعهما، في الصباح تغلف قنينته بثوبها الوردي بخزانتها، وترتدي ثوب بلا عطر!

***

الفهـــرس

الإهداء ٣
بداية طريق ٤
تسلل ٦
حياة بلا حكايات ٨
خريف العلاقات ١١
رحيل ١٤
زحام ١٦
ضيف ١٨
عد ١٩
في فضاء الفيس بوك ٢١
فراشة بلا أجنحة ٢٣
عسكر الحقيقة ٢٥
همس ٢٧
وداع صامت ٢٨
وولد القمر ٣٠
ذبول ٣٢
عذراء الليل ٣٣
حلقة هندية ٣٥
هجرة الواقع ٣٨
وجوه ونقوش ٤١
مملكة الحلم ٤٤

أمل ٤٦
مرادي ٤٨
قيد الحسن ٥١
صرخة جسد ٥٥
سماء ٥٧
لقاء الأنين ٥٩
نداء الياسمين ٦٠
ومضات ٦١
تصريح جدة ٦٢
لحظة قرار ٦٣
مداعبة الأيام ٦٤
جدب ٦٥
رحلة ٦٦
زهر الانتظار ٦٧
نائب فاعل ٦٨
الصندوق المفتوح ٦٩
همس أم ٧٠
أوتار ترتجف ٧١
جبل الحكايات ٧٢
شمس الغد ٧٣
أوتار الطبيعة ٧٤
صبح بلا جرس ٧٥
قطار ٧٦
من مذكرات امرأة عصرية ٧٧
عطر ٧٨